مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الفكر السياسي عند فولتير
(١٦٩٤ - ١٧٧٨م)

د. محمد نادر قاسم قواسمة

محاضر غير متفرغ – الجامعة الأردنية

معلم في وزارة التربية والتعليم

عمّان – المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّص

تبحث الدراسة في الفكر السياسي عند فولتير، من خلال تسليط الضوء على البيئة التي عاش فيها وأثرها على تشكيل فكره السياسي الذي ضمنه مؤلفاته التي ربت على الثلاث وخمسين مؤلفًا ولعلّ أهمها وأكثرها تضمينًا لفكره السياسي كتابه الموسوم بالقاموس الفلسفي. وهدفت الدراسة إلى إيضاح دور فولتير في تغيير المبادئ السائدة لدى الشعب الفرنسي من خلال استبدال ما أسماه "الكهانة" بالفكر الفلسفي؛ لتحرير العقل من أباطيل وخرافات الكنيسة، التي لم تسهم بأي شيء يذكر في الحياة الفكرية الفرنسية. وتكمن أهمية الدراسة في تسليطها الضوء على نظرة فولتير الفلسفية لمجموعة من الأسس التي تقوم عليها الدولة مثل: الحاكم، نظام الحكم، المساواة، الحرية، فصل الدين عن الدولة. اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي، الذي يهدف إلى التعامل مع الأحداث بأسلوب علمي تحليلي بغية الوقوف على الأسباب الحقيقية التي أسهمت في تبلور الفكر السياسي لدى فولتير، وأثره على تطور المجتمع الفرنسي. وقد بينت الدراسة مدى تأثير فكر فولتير السياسي على الحياة السياسية في فرنسا؛ حيث أسهم في قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩م، التي لم يقتصر تأثيرها على الشعب الفرنسي، بل امتد ليصل إلى كافة شعوب العالم.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢١ مارس ٢٠٢٢

تاريخ قبول النشر: ٣٠ أبريل ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

فولتير؛ الثورة الفرنسية؛ لويس الرابع عشر؛ سجن الباستيل؛ الحرية.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.285441

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد نادر قاسم قواسمة. "الفكر السياسي عند فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م)"- دورية كان التاريخية- السنة الخامسة عشرة- العدد السادس والخمسون؛ يونيو ٢٠٢٢. ص ٩٥ – ١٠١.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: muhamad.nader@yahoo.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

وصف القرن الثامن عشر- بأنه عصر التنوير في أوروبا، أو عصر العقل؛ لما تميز به من ظهور مفكرين وفلاسفة وأدباء وعلماء في مجالات عديدة، ولعلَّ من أبرزهم الفيلسوف الفرنسي- فرانسوا ماري أرويه دي فولتير (François-Marie Arouet Voltaire)، الذي عدَّ أول من استخدم مصطلح فلسفة التاريخ من خلال بحث نشره عام ١٧٥٦م، وألحقه فيما بعد بكتابه الموسوم "مقالة عن أخلاق الأمم وروحها". تبين لفولتير أن مصطلح فلسفة التاريخ يهدف إلى دراسة التاريخ على أسس تحليلية نقدية يلتزم من خلالها المؤرخ بنوع من التفكير التاريخي يمكنه من تمييز روايات التاريخ واستبعاد غير المعقول منها، فالفلسفة عنده تعني التفكير المستقل الذي يستند إلى النقد والتحليل. من هذا المنطلق عدَّ فولتير من أبرز الذين مارسوا النقد العقلي للمادة التاريخية، ولم يستثن حتى القصص الواردة في التوراة مما كان يعده رجال الدين على وجه الخصوص حقائق لا يرقى إليها الشك.

وتجلت فلسفة فولتير من خلال ما نادى به من وجوب استبدال الكهانة بالفلسفة؛ لتحرير العقل من أباطيل وخرافات الكنيسة التي لم تسهم بأي شيء يذكر في الحياة الفكرية الفرنسية. هدفت الدراسة إلى إيضاح دور فولتير في تغيير المبادئ السائدة لدى الشعب الفرنسي من خلال استبدال ما أسماه "الكهانة" بالفكر الفلسفي؛ لتحرير العقل من أباطيل وخرافات الكنيسة التي لم تسهم بأي شيء يذكر في الحياة الفكرية الفرنسية. وتكمن أهمية الدراسة في تسليطها الضوء على نظرة فولتير الفلسفية لمجموعة من الأسس التي تقوم عليها الدولة مثل: الحاكم، نظام الحكم، المساواة، الحرية، فصل الدين عن الدولة.

اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي، الذي يهدف إلى التعامل مع الأحداث بأسلوب علمي تحليلي بغية الوقوف على الأسباب الحقيقية التي أسهمت في تبلور الفكر السياسي لدى فولتير، وأثره على تطور المجتمع الفرنسي.

أولاً: الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في فرنسا

كان الشعب الفرنسي- قبل اندلاع الثورة الفرنسية ١٧٨٩م ينقسم إلى أربع أقسام هي: طبقة الأشراف والنبلاء، وطبقة رجال الدين، والطبقة الوسطى، ثم الطبقة الدنيا التي تشكلت من فقراء المدينة والريف، وكان نظام الحكم المتبع في فرنسا هو النظام الملكي[١]. حيث اتصفت هذه المرحلة بعظمة بلاط فرنسا وبؤس عامة الشعب؛ لتغول الملك مدعومًا برجال الدين على عامة الشعب الفرنسي- الفقير الذي كان ملزمًا بدفع الضرائب التي أعفي منها الأشراف ورجال الدين[٢]. وعلى المستوى الاجتماعي غاب مبدأ العدل والمساواة بين طبقات المجتمع الفرنسي؛ فالشعب كان محرومًا من أبسط حقوقه الطبيعية، أما القوانين فلم تكن موحدة لكافة أقطار الوطن فهي تختلف من إقليم لآخر[٣].

وقد عدت الطبقة الوسطى عماد الدولة في ذلك الوقت؛ فأفرادها هم من تولوا إدارة الدولة فكانوا مسؤولين عن التموين والمناجم والمواصلات وغير ذلك من الأمور التي من شأنها أن تساعد على نمو الدولة وازدهارها، لكن وعلى الرغم من كفاءتهم وأهميتهم للدولة لم يشغلوا المناصب القيادية فيها أو حتى قيادة الجيوش فهذه الأمور كانت مقتصرة على النبلاء الذين لم يكونوا أقدر منهم على توليها[٤]. ولم يسلم النظام القضائي من تدخل الملك وحاشيته؛ فالملك هو من ينشئ- المحاكم والنبلاء هم من يعينون القضاة، لذلك كانت الأحكام التي تصدرها هذه المحاكم تمثل إرادة النبلاء[٥].

ولعلَّ أكبر مثال قد نسوقه على فساد النظام السياسي والقضائي وتغول النبلاء على عامة الشعب الفرنسي هو ما كان من إلقاء القبض على فولتير والزج به في سجن الباستيل دون محاكمة في ذنبٍ لم يقرَّ به، والزج به مرة ثانية في السجن عام ١٧٢٦م، لتشاجره مع أحد الأشراف ويدعى "دي روهان"[٦]. هاتان الحادثتان تجسدان طبيعة النظام السياسي والقضائي في فرنسا، حيث كان لهما الأثر الأكبر في تيقن فولتير بأن المجتمع الفرنسي ينقصه مبدأ العدل وسيادة القانون؛ فهو لم يستطع تقديم شكوى على غريمه النبيل لنفوذه الذي منع مضيفه "دي سولي" من اصطحابه إلى مركز الشرطة لتقديم شكوى، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فانقلب صاحب الحق إلى مذنب في بلد غاب عنه العدل والإنصاف الاجتماعية، ليطلق سراحه فيما بعد بشرط يجسد مدى الاضطهاد الذي يعاني منه كل مواطن فرنسي، هذا الشرط هو حرمان فولتير من الإقامة في وطنه[٧]، وأي ظلم أكبر من هذا الظلم؟

ومن خلال ما تقدم نستطيع أن نكون صورة واضحة عن طبيعة الفترة الزمنية التي عاش بها فولتير، والتي اتصفت بالتسلط وعدم احترام القانون من قبل طبقة النبلاء في المجتمع الفرنسي، فإذا كان رجل مثل فولتير يتعرض لمثل هذه الأساليب من الاضطهاد فما حال عامة الشعب؟

ثانيًا: حياته ونشأته

هو فرانسوا ماري أروي (Francois Marie Arouet)، ولد في "شانتيه" قرب باريس بتاريخ ١٦ شباط عام ١٦٩٤م، ولم يُعمد في كنيسة "سانت اندريه ديزار" إلا بعد تسعة شهور أي في ٢٢ تشرين ثاني ١٦٩٤م، بسبب ضعف بنيته عند ولادته ، واسم فولتير الذي عرف به هو اسم لأرض صغيرة كانت تملكها أمه[٨]. كان والده أمين صندوق في ديوان المحاسبة ويتمتع بثروة ذات شأن، أما والدته فكانت من عائلة من صغار النبلاء في مقاطعة بواتو[٩].

عند بلوغه الثالثة من عمره عمد معلمه الأب "شاتونوف" على تعليمه الموسويات[١٠] بالإضافة إلى نظم الشعر الفرنسي، وعمل على بث روح الكراهية للمتعصبين وكرههم في نفسه[١١]. وعند بلوغه العاشرة عمد والده على إدخاله سلك القضاء، فأرسله إلى اليسوعيين[١٢] الذين كانوا يديرون كلية "لويس لو غران"، حيث تخرج منها عام ١٧١٣م، فعمد والده على تدريبه على الحقوق عند أحد المحامين، إلا أن فولتير لم يرغب في ذلك فاتجه إلى الكتابة ونظم الشعر[١٣].

تمثلت أهم المبادئ التي نادى بها فولتير في كتاباته بما أبداه من إلحاح على مبدأ إطلاق الحرية بين أفراد المجتمع الفرنسي، حيث أكد على حق كل فرد في انتقاد أي تصرف يخرج عن المبادئ العامة[١٤]. إلا أن مبدأ إطلاق الحريات الذي نادى به فولتير لم يلقَ استحسانًا لدى طبقة النبلاء ورجال الدين في فرنسا، فعمدت للقبض عليه بسبب قصيدة تم تداولها بين الناس نسبت إليه؛ وذلك بسبب أسلوبها الذي عُرف به فولتير، فزُج به في سجن الباستيل دون محاكمة رغم إنكاره للقصيدة[١٥].

أمضى فولتير في سجن الباستيل أحد عشر شهرًا استطاع خلالها تأليف مسرحية "أوديب" التي لاقت رواجًا واسعًا بين فئات المجتمع الفرنسي[١٦]. ولعلَّ السماح لفولتير باستمرار نشاطه الأدبي داخل السجن يقودنا إلى القول أن الحرية الفكرية كانت مسموحة في المجتمع الفرنسي بشرط أن لا تمس هذه الحرية امتيازات النبلاء ورجال الدين، وهذا يفسر لنا السماح له بممارسة نشاطه الأدبي، فقد ضنَّ سجانوه أن هذا العقاب كفيل في إيقافه عن المناداة بمبدأ اطلاق الحرية وسيمنعه عن انتقاد من كانوا سبب سجنه، إلا أن هذا لم يحدث وهذا ما لمسناه من تزايد نشاطه السياسي بعد خروجه من الباستيل.

أجبر فولتير على الرحيل بسبب الخلاف الذي دار بينه وبين النبيل "دي روهان"[١٧]، بسبب تنافسهما على قلب ممثلة[١٨]، فارتحل قاصدًا إنجلترا التي اتصفت في ذلك الوقت بانتشار مبدأ الحرية السياسية واحترام ثقافة الاختلاف بين أفراد المجتمع، حيث استقبل فولتير لدى وصوله بحفاوة بالغة؛ فسمعته قد سبقته إلى مقصده، ناهيك عن التوصيات التي حُملت معه من قبل السفير البريطاني في فرنسا التي دفعت الملك للاحتفاء به لا بل وإهدائه ساعة[١٩]، وهذه دلالة على احترام فكره الذي لم يكن غريب عن المجتمع الإنجليزي في ذلك الوقت.

تعلم فولتير اللغة الإنجليزية مع نهاية عام ١٧٢٦م وأخذ يكتب الخطب بها[٢٠]، ودرس الفلسفة المادية وفلسفة لوك ونيوتن، ليصبح فيما بعد أكبر الدعاة لأفكارهما[٢١]. ويقول فولتير في ذلك: "لقد كنت أول من جرأ على تفسير اكتشافات نيوتن لشعبه بلغة مفهومة، وعندما امتدحت لوك علت أصوات النباح ضدي وضده"[٢٢].

أثرت إقامة فولتير الجبرية في إنجلترا على شخصيته؛ فعند خروجه من فرنسا كان جلُّ ما يشغل تفكيره هو كيفية الانتقام ممن أهانه، وعند إقامته في إنجلترا أصبح جلُّ اهتمامه ينصب على إظهار تميز المجتمع الإنجليزي الذي يتصف بالتسامح الديني، بالإضافة إلى انتشار العدل بين أفراده لعدالة النظام السياسي الذي يحترم القانون وينبذ التعصب والاستبداد القائمين في فرنسا[٢٣].

تأثر فولتير بكتابات شكسبير وأبدى اندهاشه من قلة ذوقه، ودرس النظام السياسي الذي يدير أمور الدولة في إنجلترا مبديًا اندهاشه من القدر الممنوح للمواطن الإنجليزي من الحرية السياسية، وحلم بأن يشن حربًا على الأفكار الخاطئة في فرنسا إذا سُمح له بالعودة[٢٤]. عاد فولتير إلى فرنسا بعد ثلاث سنوات، لينشر سرًا الرسائل الإنجليزية التي أثارت ضجة في المجتمع الفرنسي لطعنها برجال الدين، الأمر الذي أدى إلى مصادرة الكتاب وإحراقه[٢٥]. وهنا يكمن الاختلاف بين الحرية الفكرية الممنوحة للمواطن الإنجليزي والحرية الممنوحة للمواطن الفرنسي التي لم تكن موجودة أصلاً.

وبعد هذه الأحداث التي مر بها فولتير عَمِدَ إلى البحث عن الاستقرار بعيدًا عن الاصطدام مع النبلاء، فاتخذ من قصر عائلة دي شاتلية الواقع في تخوم مقاطعة اللورين مقرًا له عام ١٧٣٤[٢٦]، وعمل في الأكاديمية الفرنسية عام ١٧٤٦م[٢٧]، إلا أن مكوثه لم يطل فغادره متجهًا إلى برلين عام ١٧٥٠م بناءً على دعوة موجهة من فريدرك الثاني ملك بروسيا، الذي لم يمكث عنده طويلاً لتضارب الأفكار بينهما، فارتحل عام ١٧٥٣م قاصدًا جنيف في سويسرا ليقيم بها حتى يسمح له بالدخول إلى فرنسا،

حيث دخلها في عام ١٧٧٨م وهو نفس العام الذي توفي به أي في ٣٠ أذار ١٧٧٨م[٢٨].

رفض رجال الدين دفنه حسب الطقوس المسيحية لما أبداه من انتقاد لتصرفاتهم، فحمل الأب "دي سيلييز" الجنازة ودفنه في ديره[٢٩]، وهذا يقودنا إلى القول أن أفكار فولتير كانت تلقى استحسانًا لدى بعض رجال الدين الذين كانوا ينتقدون استحواذ كبار رجال الدين على الأموال دونهم، بالإضافة إلى استغلال بعض رحال الدين للدين لتحقيق رغباتهم وأهوائهم الشخصية، وإلا كيف نفسر ما قام به الأب دي سيلييز. وفي عام ١٧٩١م، حملت رفاته إلى "البانيون" مقبرة العظماء، إلى جانب رفات جان جاك روسو[٣٠]، وقد خط على قبره العبارة التالية "لقد هيأنا للحرية"[٣١].

ثالثًا: مؤلفاته

يغلب على مؤلفات فولتير الطابع المسرحي الناقد، والأسلوب الأدبي الساخر وهي في مجملها ذات اهتمام بفكرة الحس العام وقد بلغت إصدارته قرابة الخمسة والأربعين مؤلفًا، نذكر منها[٣٢]:

- الرسائل الفلسفية كتبها بعد عودته من إنجلترا ونشرها عام ١٧٤٤م.
- القاموس الفلسفي ويعتبر قمة ما وصل إليه عصر التنوير من تقدم فكري وحضاري، وقد ضمنه نقد للطغيان وهاجم المبادئ والعقائد المسيحية، ورفض إمكانية وجود معجزات تتناقض مع الدلائل العلمية.
- ملحمة "الهزياد" وهي أعظم آثاره الشعرية، وقصد منها إعطاء فرنسا ملحمة جديرة بعظمتها، وقد تغنى فولتير فيها بروح التحرر والثورة، وأيقظ في القلوب حب الوطن وهاجم الكنيسة، التي اعتبرها رأس الكوارث، وكان ذلك كله من الأسباب التي جعلت الحكومة تمنع تداول الملحمة بين أفراد الشعب.
- مسرحية أوديب، عرضت فكرة جديدة لا بل استفزازية ألا وهي هجومه الشديد على الإله المتجهم المنتقم[٣٣].

رابعًا: الفكر الفلسفي عند فولتير

يمكن استخلاص فكر فولتير من خلال كتاباته التي عالج فيها عدة أمور تتعلق بالنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي في فرنسا، حيث ابدى تصوره لما يجب أن يكون عليه نظام الحكم في فرنسا والقائم عليه، كما أشار إلى أهمية إرساء مبدأ العدل والمساواة بين أفراد المجتمع الفرنسي دون تمييز، وانتقد تسلط رجال الدين على عامة الشعب واستغلالهم الدين لتحقيق مكاسب مادية.

٤/١-الحاكم ونظام الحكم

عدَّ فولتير نظام الحكم الملكي المستنير أفضل أنظمة الحكم؛ ذلك أن الملك وحده القادر على تحقيق الإصلاح في الدولة من خلال مكافحة الفساد فيها لامتلاكه القوة اللازمة لتحقيق ذلك[٣٤]. لهذا نجده يؤيد قيام نظام ملكي مستنير، ويقلل من شأن النظام الديمقراطي الذي يعتمد على العدد لا النوع[٣٥]، إلا أنه لم يغفل مع كل ذلك لزوم تقييد سلطة الملك بالقانون، ففي غيابه يصبح الملك طاغية، يقول فولتير: "الملك لا يعرف من القوانين إلاَّ هواه، فيستولي على مال أتباعه، وبعد ذلك يجندهم ليستولي على أموال الجيران"[٣٦]، وفي اعتقاده أنه لا يفعل ذلك إلا حبًا في شعبه، يقول فولتير: "يصيح الدكتاتور بأنه يحب وطنه، وهو في الحقيقة لا يحب إلا نفسه"[٣٧].

ودلل فولتير على صحة مبدأه بما حققه كلٍ من لويس الرابع عشر[٣٨] وبطرس الأكبر[٣٩] من إنجازات في عهديهما، حيث وصف حكمهما بالحكم الملكي المستنير، مشيرًا إلى أن عظمة الحاكم تكمن في أعماله التي تنعكس بشكل إيجابي على شعبه[٤٠]. ومن هذا المنطلق فضل فولتير استبداد الفرد على استبداد الجماعة؛ لأن الفرد لا يخلو من أوقات يكون فيها طيبًا، أما الجماعة فليس لديهم مثل هذا الوقت إطلاقًا، هذا أولاً. أما ثانيًا فالمستبد يمكن أن تتخلص منه عن طريق خليلته أو خادمه، أما الجماعة فلا يفيد هذا الأمر معهم، وثالثًا إذا كان في الدولة مستبد فمن الممكن تجنبه أما إذا كانت الدولة تحوي مجموعة مستبدين فمن الصعب تجنبهم[٤١].

يرى فولتير أن الدولة بشكلها البدائي نشأ من خلال اتحاد مجموعة من الأسر مع بعضها البعض[٤٢]، وهذه الدولة لم تتخذ النظام الملكي دستورًا لها إلا من خلال الصراعات والحروب التي خاضتها، والتي أسهمت بدورها في جعل القائد العسكري الرجل العظيم الشأن فيها، والمرهوب الجانب، حيث يعتاد أبناء قومه على طاعته، وبذلك يصبح ملكًا متسلمًا مقادير قومه، وحاكمًا له كلمة الفصل بينهم[٤٣]. ففلتير لا يتفق مع الذين نادوا بمبدأ العقد الاجتماعي[٤٤] فالملك يقوم على الإكراه من وجهة نظره لا على التعاقد[٤٥].

٤/٢-المساواة

لم يكن تناول فولتير موضوع المساواة في فكره السياسي نابعًا من العدم؛ فالمجتمع الفرنسي كان يفتقر في زمنه لأبسط مبادئ المساواة على كافة الأصعدة إن كانت سياسية أو

اقتصادية أو اجتماعية. من رحم هذا الواقع جاءت مطالب فولتير بإرساء مبدأ المساواة بين أفراد الشعب الفرنسي، فالمساواة عنده تمثل أهم عامل من عوامل تقدم الدولة وازدهارها، يقول فولتير: "يجب أن نتفق على أنَّ كل الناس قد ولدوا متساوين، ثم أصبح النص سادة عن طريق القوة والدهاء، وأصبح النصف الآخر سادة عن طريق القوانين"[٤٦]. لذلك يؤكد فولتير على أن الفروق الناتجة بين الأفراد يجب ألا تأثر على حقوقهم السياسية في الدولة.

وعلى الرغم من دعوته للمساواة إلا أنه أبان عدم إمكانية تحقيقها على أرض الواقع؛ فالبشر وعلى الرغم من أنهم متساوون في الخليقة إلا أنهم متباينون في مقدراتهم الشخصية والخلقية[٤٧]، وهذا الأمر يجعل تطبيق المساواة بينهم أمر صعب المنال "إن المساواة أهم الأشياء في الطبيعة ولكنها في الوقت نفسه أبعدها وهمًا"[٤٨]. وفي هذا المقام لم يجد فولتير أن نظام الطبقات في المجتمع يتناقض مع مبدأ المساواة؛ فهذا النظام جاء من حاجة الناس بعضهم لبعض "لو انعدمت الحاجة عند الرجال لأصبحوا متساوين"[٤٩].

ويرى فولتير أن المساواة لا تكون إلا أذا وجد نظام يطبق على جميع المواطنين بلا استثناء[٥٠]، وهذا الأمر لا يكون في ظل وجود النظام الملكي المتسلط. لذلك نجده يفضل النظام الملكي المقيد بالقانون، فهو في نظره أفضل الأنظمة السياسية.

٤/٣-الحرية عند فولتر

اعتبر فولتير الحرية من أهم المبادئ التي يجب أي يحصل عليها الإنسان؛ ففي غيابها لا يستطيع القيام بأي عمل من شأنه أن يغير واقعه، فالنظام الاجتماعي ليكون عادلاً ومنصفًا لا بد أن يقوم على الحرية [٥١]، لذلك طالب بلزوم توفير حرية إبداء الرأي بكافة أشكاله لأفراد المجتمع الفرنسي[٥٢]، لأهمية ذلك في تقدم المجتمع ورفعته، وقد تبلور هذا الفكر لدى فولتير نتيجة لدراسته أسباب تقدم المجتمع الإنجليزي الذي أعزاه لإرساء مبدأ الحرية بين أفراده. إلا أنه لم يغفل الإشارة إلى الثمن الباهض الذي قد يدفعه المجتمع الفرنسي مقابل الحصول على الحرية، مدللاً على التضحيات التي قدمها الشعب الإنجليزي في سبيل الحصول على حريته[٥٣]. وهذا الطرح من قبل فولتير يعد إشارة واضحة لتوجهه الثوري المتمثل في تحريض الشعب الفرنسي للثورة من أجل الحصول على الحرية، حتى لو كلف الأمر التضحية في النفس والمال لتحقيق ذلك ففي نظره لا مجد رخيص الثمن.

٤/٤-رأي فولتير في فصل الدين عن الدولة

أنكر فولتير على رجال الدين تدخلهم في شؤون الدولة السياسية، ودعا إلى لزوم سحقهم لتقييدهم حرية الفكر في المجتمع[٥٤]، والاستعاضة عن الكهانة بالفلسفة[٥٥]، فهو يرى أن الدين الذي تدخلت به أهواء البشر أدى إلى انتشار الفتن والمؤامرات وغيرها من الأمور بين أفراد المجتمع الفرنسي، يقول فولتير: "الدين الزائف يشجع على القسوة، والمؤامرات، والفتن، والسرقة، وإقامة المكائد، ومهاجمة البلدات، والنهب، والقتل، وكل ذلك كان يجري تحت عنوان القداسة"[٥٦].

من هذا المنطلق نجد أن فولتير قد وقف موقفًا معاديًا لرجال الدين، الذين أدعوا أنهم وسطاء بين الله والناس، وأخذوا يضعون القوانين التي تخدم مصالحهم الخاصة، وباسم الدين أخذوا يحرمون ويقتلون ويسلبون[٥٧]، من هنا اعتبرهم العدو الرئيس للمجتمع ودعا بقوة لسحقهم[٥٨]؛ لما كان لهم من أثر كبير في نشر التعصب الديني، وسلب حرية البشر في اختيار الديانة(المذهب) وممارسة الطقوس التي تلائمهم فيعبدوا الله على طريقتهم[٥٩]، وهذا يفسر سبب انتشار أفكاره الدينية بشكل أسرع من أفكاره السياسية[٦٠].

وعلى الرغم مما تقدم إلا أن فولتير لم ينكر بفائدة الدين الاجتماعية، فتجده يقول: لو كان عندك مزرعة تريد حكمها، لتوجب أن يكون لها دين[٦١]، إلا أنه أصر على الفصل بين الدين والكهانة(رجال الدين)، فقال: يجب أن يكون لنا دين، ويجب أن لا نؤمن بالكهنة[٦٢]، وقصد من وراء مناهضته لرجال الدين تحرير العقل من أباطيل وخرافات الكنيسة[٦٣]. إن دين فولتير هو دين العقل، الدين الطبيعي، وإيمانه بالألوهية ليس حيلة ولا تنازلاً، فهو يؤمن بأن الله يجزي على الخير ويعاقب على الشر، يقول فولتير:" إني أريد أن يكون وكيلي وحائكي وحتى زوجتي مؤمنين بالله، وأتصور أنني عندئذ سأكون أقل تعرضًا للسرقة والاستغلال"[٦٤].

خَاتمَةٌ

كان لفولتير فضل في انتقال المجتمع الفرنسي من حكم الطبقة الأرستقراطية التي تعتمد النظام الملكي كأسلوب حكم، إلى حكم الطبقة المتوسطة التي تبنت النظام الجمهوري في الحكم، وليس أدل على ذلك من قول لويس السادس عشر (١٧٧٤-١٧٩٣م) في سجنه واصفًا أثر كلٍ من فولتير وروسو قائلاً: "لقد دمر هذان الرجلان فرنسا"[٦٥] قاصدًا بذلك زوال النظم الملكي فيها.

ولعلَّ تأثير فولتير على المجتمع الفرنسي كان أكبر من تأثير أي مصلح آخر؛ ذلك أن فولتير استطاع نشر أفكاره من خلال مسرحياته التي كان يضمنها أفكاره الفلسفية المتعلقة بوجوب حصول المجتمع الفرنسي على الحرية والعدالة الاجتماعية، بالإضافة إلى مقاومة تسلط رجال الدين على المواطنين بحجة التعاليم المسيحية، وذلك من خلال تفسيره الواقعي لحوادث التاريخ مبتعدًا بذلك عن غيبيات الكتاب المقدس. ولعلَّ نقل رفات فولتير إلى مقبرة العظماء أكبر دليل على تأثر المجتمع الفرنسي بأفكاره وبالتالي تأثر العالم بأسره خصوصاً بعد قيام الثورة الفرنسية التي غيرت المفاهيم السائدة في العالم لتحل مكانها المفاهيم الجديدة القائمة على الحرية والمساواة وسيادة القانون.

والدارس لتاريخ الفكر الأورُبي الحديث يلاحظ أن الغرب الأوربي لم يقدم للعالم وللإنسانية شيء جديد في مجال العلوم الإنسانية؛ فكل ما قد تمَّ طرحه من قبل الغرب من أفكار كانت الديانات السماوية (اليهودية، النصرانية، الإسلامية) قد نادت بها منذ عدة قرون، وهذا القصور في الاطلاع يعد مأخذًا على الفكر الأورُوبي. إلا أننا ومع كل ما تقدم لا نجحد فضلهم في مجال العلوم الطبيعية؛ فلهم ينسب الفضل لما حققته الإنسانية من تقدم في مجال العلوم الطبيعية.

الاحالات المرجعية:

(١) خوري، رنيف (١٩٩٣م)، **الفكر العربي الحديث، أثر الثورة الفرنسية في توجيه السياسات الاجتماعية**، ط٣، دار المكشوف، بيروت، ص ٣٠. وسيشار إليه لاحقًا: خوري، الفكر العربي الحديث.

(٢) انظر: عمر، عمر عبد العزيز، (١٩٩٢م)، **دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث**، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ص٢٩١. وسيشار إليه لاحقًا: عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث؛ كريسون، أندريه، ١٩٦١م، فولتير حياته آثاره فلسفته، ترجمة: صباح محيي الدين، منشورات عويدات، بيروت، ص ٨٦. وسيشار إليه لاحقًا: كريسون، فولتير.

(٣) انظر: فشر، ا.ل (د.ت)، **تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠م)**، تعريب: أحمد نجيب ووديع الضبع، دار المعارف، القاهرة، ص٥. وسيشار إليه لاحقًا: فشر، تاريخ أورُبا؛ كريسون، فولتير حياته آثاره فلسفته، ص٨٥-٨٦.

(٤) ديورانت، ول وايريل (١٩٩٢م)، **قصة الحضارة، عصر فولتير**، ترجمة: فؤاد أندراوس، الجزء الأول من المجلد التاسع، دار الجليل، بيروت، ص٣١. وسيشار إليه لاحقًا: ديورانت، قصة الحضارة؛ فشر، تاريخ أورُبا، ص٦.

(٥) ديورانت، قصة الحضارة، ص٣٤.

(٦) المرجع نفسه، ص ١٢- ١٣.

(٧) المرجع نفسه، ص ١٣.

(٨) سعده، سليم (١٩٤٨م)، **فولتير**، دار المعارف، مصر، ص١١. وسيشار إليه لاحقًا: سعده، فولتير.؛ كريسون، فولتير، ص١٠.

(٩) كريسون، فولتير، ص١٠.

(١٠) هي قصيدة في مدح اللاأدرية ونفي جميع الأديان. انظر: سعده، فولتير، ص١١-١٢. اللاأدرية هي توجُّه فلسفي أو مذهب لاديني يقول: إن القيمة الحقيقية للقضايا الدينية أو الغيبية غير محددة، ولا يمكن لأحد تحديدها، وإن قضايا وجود الله أو الذات الإلهية موضوع غامض كلية، و لا يمكن تحديده في الحياة الطبيعية للإنسان. انظر:
Laurence B. Brown, Agnosticism, 2013 – 1434, p1-2. www.islamreligion.com website

(١١) سعده، فولتير، ص١١-١٢.

(١٢) يعتبر إنجو لويز دي ريكالدى المنحدر من أصل أسباني هو المؤسس لجماعة اليسوعيين؛ فبعد خروجه من بلاط الملكان الكاثوليكيان فريدننذ وإيزبيلا، إلتحق بجيش شارل الخامس، وبعد اصابته أرغمته على الخروج من الجيش فاتجه إلى دراسة الدين المسيحي، فدرس حياة القديسين بالإضافة إلى اللاهوت التي حصل بها على أعلى مرتبة علمية سنة ١٥٣٤م. ولإمتيازه بالحماس الديني تمكن من جمع عدد من المؤيدين حوله، وتعاهدوا على النضال من أجل المسيح و خدمة الكنيسة الكاثوليكية وطاعة البابا والسفر إلى القدس للعيش فيها والعمل على نشر الديانة المسيحية في بلاد المشرق الإسلامي، لكن توتر العلاقات بين الدولة العثمانية والبندقية منعتهم من تحقيق هدفهم، فعرضوا على البابا إنشاء جماعة تناضل من أجل المذهب الكاثوليكي فوافق البابا على ذلك وقام بإصدار مرسوم سنة ١٥٤٠م نص على إنشاء الفرق الكنسية المناضلة والتي عرفت فيما بعد بإسم اليسوعيين. يحيى، جلال (١٩٨١م)، **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص٤٦٠. وسيشار إليه لاحقًا: يحيى، تاريخ أوروبا.

(١٣) كريسون، فولتير، ص١١.

(١٤) المرجع نفسه، ص ١٢.

(١٥) سعده، فولتير، ص١٥؛ كريسون، فولتير، ص١٢.

(١٦) كريسون، فولتير، ص١٢.

(١٧) كريسون، فولتير، ص١٣؛ سعده، فولتير، ص١٥؛ سترومبرج، دونالد ١٩٩٤م، **تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ١٦٠١-١٩٧٧م**، دار القارئ العربي، الطبعة الثالثة، القاهرة، ص١٨٤. وسيشار إليه لاحقًا: سترومبرج، تاريخ الفكر الأوروبي.

(١٨) سترومبرج، **تاريخ الفكر الأوروبي**، ص١٨٤.

(١٩) ديورانت، **قصة الحضارة**، ص ٣٥٣.

(٢٠) المرجع نفسه، ص ٣٥٣.

(٢١) تعلق فولتير بروح المذهب التجريبي عند جون لوك(١٦٣٢-١٧٠٤م)، وبالفيزياء عند نيوتن(١٦٤٢-١٧٢٧م). انظر: رايت، وليم كلي (٢٠١٠)، **تاريخ الفلسفة الحديثة**، ترجمة: محمود سيد أحمد، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ص٢٣٢-٢٣٣. وسيشار إليه لاحقًا: رايت، **تاريخ الفلسفة الحديثة**؛ سترومبرج، تاريخ الفكر الأوروبي، ص١٨٥.

(٢٢) انظر فولتير عند: حاتم، عماد (١٩٧٩م)، **مدخل إلى تاريخ الأدب الأوروبي**، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ص ٢٤٠. وسيشار إليه لاحقًا: حاتم، مدخل إلى تاريخ الأدب الأوروبي.

(٢٣) نف، إيمري (١٩٦١م)، **المؤرخون وروح الشعر**، ترجمة: توفيق اسكندر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ص١٤-١٥. وسيشار إليه لاحقًا: إمري، المؤرخون وروح الشعر؛ سترومبرج، **تاريخ الفكر الأوروبي**، ص١٨٤.

(٢٤) كريسون، فولتير، ص ١٧.

(٢٥) سعده، فولتير، ص١٦؛ حاتم، **المدخل إلى تاريخ الآداب الأوربية**، ص٢٤١.

(٢٦) كريسون، فولتير، ص ١٩.

(٢٧) النجار، جميل موسى(٢٠١١م)، **فلسفة التاريخ مباحث نظرية**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص٨٣. وسيشار إليه لاحقًا: النجار فلسفة التاريخ.

(٢٨) كريسون، فولتير، ص ٤٠.

(٢٩) المرجع نفسه، ص ٤٠-٤١.

(٣٠) مؤلف كتاب العقد الاجتماعي، ولد في مدينة جنيف بتاريخ ١٧١٢/٦/٢٨م. انظر: كريسون، أندريه (١٩٦٠)، **روسو حياته، فلسفته، منتخبات**، ترجمة: نبيه صقر، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ص ٨-٩. وسيشار إليه لاحقًا: كريسون، روسو.

(٣١) كريسون، فولتير، ٤٠-٤١.

(٣٢) الحمادين، مبروك موسى (٢٠٠٧م)، **أثر فولتير في فكر رواد النهضة (رفاعة الطهطاوي، أحمد فارس الشدياق، فرح أنطون)**، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف: محمد الشوابكة، جامعة مؤتة، الأردن، ص٣٢-٣٣. وسيشار إليها لاحقًا: الحمادين، أثر فولتير.

(٣٣) سترومبرج، تاريخ **الفكر الأوروبي الحديث**، ص١٨٥

(٣٤) الأصبحي، أحمد محمد (٢٠٠٠م)، **تطور الفكر السياسي رواده اتجاهاته إشكالياته**، الجزء الثالث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص١٢٩٢. وسيشار إليه لاحقًا: الأصبحي، تطور الفكر السياسي.

(٣٥) المرجع نفسه، ص١٢٩٢.

(36) Voltaire 2004, Philosophical Dictionary, 21st edition, penguin Classics, London, p.398.

(37) Voltaire, Philosophical Dictionary, p.327-328.

(٣٨) وصل إلى حكم فرنسا عام ١٦٦١م وتوفي عام١٧١٥م، أصبحت فرنسا تحظى بمركز ممتاز في عهده في أوروبا، وشهد عصره ازدهار الأدب والفلسفة والعلوم والفن، وقد وصف فولتير عهده بأنه العصر الماجد والعظيم. سترومبرج، **تاريخ الفكر الأوروبي**، ص١٣٧-١٣٨

(٣٩) بطرس الأكبر: ملك روسيا ولد ١٦٧٢م، وسمي الأكبر لأنه شرع في أمور جسيمة مثل تحديث دولته، وتعليم رعيته، وهذه الأعمال لم تخطر ببال أسلافه، توفي ١٧٢٥م. الحمادين، أثر فولتير، ص ٥٥.

(٤٠) كريسون، فولتير، ص٨٦-٨٧.

(٤١) سعده، فولتير، ص١١٠-١١١.

(٤٢) مرشد، عارف عادل، "**ملامح من الفكر السياسي عند فولتير**"، مجلة جامعة فلدلفيا الثقافية، عمان- الأردن، ص٤١. وسيشار إليه لاحقًا: مرشد، ملامح من الفكر السياسي عند فولتير.

(٤٣) الأصبحي، **تطور الفكر السياسي**، ص١٢٩٢.

(٤٤) من أبرز من نادى بمبدأ العقد الإجتماعي هو جان جاك روسو، ومبدأ العقد الاجتماعي قائم على أن يتنازل الشعب عن السلطة للإرادة العامة طوعًا ليتولى تدبير شؤونهم. انظر: الشيمي، محمد، (٢٠٠٩)، "**قراءة في فكر جان جاك روسو الفيلسوف والسياسي**"، مجلة الحوار المتمدن، عدد ٢٥٢٩، ص١-٢. وسيشار إليه لاحقًا: الشيمي، قراءة في فكر جان جاك روسو.

(٤٥) مرشد، **ملامح من الفكر السياسي عند فولتير**، ص٤٢.

(46) Voltaire, Philosophical Dictionary, p.293.

(٤٧) كريسون، فولتير، ص٨٨؛ الأصبحي، تطور الفكر السياسي، ص١٢٩٠.

(48) Voltaire, Philosophical Dictionary, p.183.

(49) Voltaire, Philosophical Dictionary, p.183.

(٥٠) كريسون، فولتير، ص٨٨.

(٥١) الأصبحي، **تطور الفكر السياسي**، ص١٢٩٠.

(52) Voltaire, Philosophical Dictionary, p.279,324.

(٥٣) فولتير (١٩٥٩م)، **الرسائل الفلسفية**، ترجمة: عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة، ص ٤٧-٤٨. وسيشار إليه لاحقًا: فولتير، الرسائل الفلسفية.

(٥٤) الأصبحي، **تطور الفكر السياسي**، ص١٢٨٨.

(٥٥) سترومبرج، **تاريخ الفكر الأوروبي الحديث**، ص١٩٧.

(56) Voltaire, Philosophical Dictionary, p.233

(٥٧) فولتير، **الرسائل الفلسفية**، ص٤٦.

(٥٨) الأصبحي، **تطور الفكر السياسي**، ص١٢٨٨.

(٥٩) كريسون، **فولتير**، ص٨٧.

(٦٠) الأصبحي، **تطور الفكر السياسي**، ص١٢٨٨.

(٦١) فولتير عند: الأصبحي، **تطور الفكر السياسي**، ص١٢٨٩.

(٦٢) فولتير عند: الأصبحي، **تطور الفكر السياسي**، ص١٢٨٩.

(٦٣) الأصبحي، **تطور الفكر السياسي**، ص١٢٨٩.

(٦٤) فولتير عند: الأصبحي، **تطور الفكر السياسي**، ص١٢٨٩.

(٦٥) لويس السادس عشر عند: مرشد، **ملامح من الفكر السياسي عند فولتير**، ص٤١.